الجنة المفقودة

فتاة ذات حسن وجمال تعيش نشوة الحب والهيام وسط وعوده البراقة التي يزفها إليها. وبكلماته الرقيقة المعسولة ذابت مشاعرها، فتاه عقلها عنها. حتى تزوجته عرفيًا ومضيا معًا أيامًا قليلة خلسة من أهلها. حتى ملها وسأمها ورغب عنها، وأخذ يتهرب منها، ويختلق لها الأعذار.

حتى أحست بشيء غريب يتحرك في بطنها، فذهبت إليه تتوسله خوفًا من الفضيحة والعار. حتى هرب منها إلى ليبيا وما أن وصلها حتى أعد العدة؛ للهرب منها إلى إيطاليا، وأخذ يبحث عن سماسرة التهريب الأسود.

ووسط الظلام الدامس الرهيب تسلل القارب متجهًا في عرض البحر. وهو ينظر إلى تلك الأمواج العاتية التي بدأت تؤرجح القارب، وتضربه بكل قوة مسببة حركات غير منتظمة. وأخذ الصراخ يعلو شيئًا فشيئًا.

وانتابهم الهلع، وساد الخوف، وجرى الركاب على سطح المركب هنا وهناك يبحثون عن أطواق النجاة. حتى أخذته الأمواج وغاص بأعماق البحر وتوارى عن الأعين، فهلكوا جميعًا وسط الأمواج العاتية.

وتصدرت صور الغرقى الصفحات الأولى في الصحف والمجلات. أحست الفتاة بحجم الكارثة. حتى أصبحت مشوشة التفكير، لا تدري ماذا تفعل؟. أخذت الفتاة تبحث عن حلٍ لتلك الكارثة التي لحقت بها. وصعدت إلى غرفتها، واتجهت ناحية النافذة وهى تحدق بنظرها ناحية الأرض. وأصابتها رعشة خفيفة وأخذ العرق يتصبب منها، وأنفاسها تزداد حدتها ما بين شهيق وزفير، ويكاد قلبها أن ينفجر، ووضعت قدميها على أرضية النافذة، بعدما صعدت إليها وأغمضت عينيها، وسلمت نفسها لأول نسمة هواء عابرة حتى تهوي بها إلى أرضية الشارع.

فأدركتها والدتها وجذبتها بكل قوةٍ إلى داخل الحجرة، لتفقد الوعي.

أخذت الأم تضرب على وجهها، وتصرخ في أعماقها من هول الصدمة الشديدة. وتركتها تنام داخل الحجرة، وبخطى بطيئة وبقلبٍ منكسرٍ أخذت الأم تسير إلى حيث يجلس زوجها. وما إن رأته حتى همست في أذنه بالفاجعة، فاسود وجهه، وجرى الدم في عروقه، وتيبست معالم وجهه، وابيضت عيناه، وجهزت الأم كفن ابنتها.

تسللت البنت وسط الظلام في غفلة من أمها قبل أن ينكشف سترها. الساعة تقترب من الواحدة بعد منتصف االيل. وسعيد المراكبي يلف بحبل المعدية حول الوتد الحديدي داخل المرسى؛ لينهي عمله؛ ليتجه بعدها إلى حيث ينام. وبينما هو على هذا الحال رأى شبحًا يجرى وسط الظلام، يجرى ناحية مرسى المعدية.

إنها فتاة في العشرين من عمرها. وما إن وصلت إليه حتى أخذت ترجوه وتتوسل إليه أن يعبر بها بسرعة إلى الشاطىء الآخر. وصعدت إلى سطح المعدية، وجلست تلتقط أنفاسها، وما هى إلا لحظات تفقد بعدها الوعى. وتقع على أرضية المعدية فيفك سعيد المراكبي الحبل من حول الوتد الحديدي، ويصعد قافزًا إلى سطح المعدية ويمسك بالحبل، ويشد ويشد حتى تبدأ المعدية في حركتها وسط الأمواج متخذة طريقها إلى الشاطىء الآخر. وما إن رست المعدية حتى حمل الفتاة على كلتا يديه، وصعد بها درجات السلم في طريقه إلى المستشفى. والهواجس والظنون تلعب بخيالات عقله، وأخذ العرق يتصبب منه.

دخل سعيد المراكبي حاملًا الفتاة إلى حجرة الطبيب، ووضعها برفقٍ على السرير، وبدأ الطبيب في الكشف على الفتاة، وبدت عليه علامات الفرح والسرور، وبادر الطبيب قائلًا: مبروك زوجتك حامل.

تعجب سعيد المراكبي، وأمسك بروشتة الدواء وخرج يبحث عن أقرب صيدلية؛ ليشتري منها الدواء. وما إن انتهى من شراء الدواء حتى عاد سريعًا، ورفع الستارة فإذا بالسرير خالٍ. عاد سعيد المراكبي إلى الوراء متجهًا ناحية الممرضة يسألها عن الفتاة، فأخبرته أنها انصرفت منذ قليل.

فخرج من باب المستشفى وهو يرثى حال تلك الفتاة التي أصبحت لغزًا محيرًا له، لا يستطيع فك طلاسمه المتشابكة.

وأخذ يسأل نفسه عن مدى العلاقة ما بين الصحيفة التي كانت تمسك بها، والتي كانت بها صور الشباب الغرقى أمام السواحل الإيطالية، وعن الحالة التي كانت بها حتى وصل إلى مرسى المعدية.

وهبط درجات السلم وصعد إلى سطح المعدية، وأمسك بحبلها، وأخذ يشد بكل قوة متجهًا إلى مرساها على الشاطىء الأخر. وبينما هو على هذا الحال سمع صوت آهات تعلو شيئًا فشيئًا فانخلع قلبه وجف ريقه، وسرت قشعريرة خفيفة بجسده واصفر لون وجهه. والتفت ناحية الصوت فوجد الفتاة ترقد على الدكة الخشبية تتلوى من شدة الألم، فهدأت نفسه وأخذ الدم يجرى في عروقه، وأخذ يشد الحبل حتى وصل إلى المرسى، وحمل الفتاة واتجه بها إلى كوخه الصغير، وقام على رعايتها.

واستيقظت الأم من نومها على غير عادتها، وذهبت ترقب ابنتها فلم تجدها. فصرخت بأعلى صوتها، فنهض الأب من نومه، وأخذ يبحث عن ابنته في كل مكان حتى وصل إلى مرسى المعدية. وأخذ ينظر ويبحث حول المرسى، فإذا بحقيبة ملابس ابنته بجوار الوتد الحديدى فأجهش باكيًا ناعيًا غرق ابنته في النهر.

وشاع في البلدة أن ابنته قد غرقت في النهر، وتقبل التعازي من أهل القرية في ابنته، وأضمر في نفسه ما يخفيه.

مرت الأيام تباعًا وسعيد المراكبي يقوم على رعاية الفتاة. وما هى إلا أيام قليلة باقية؛ لتنجب طفلًا. وكم كانت فرحة سعيد المراكبي بهذا الطفل الذى احتضنه وأغدق عليه من ينابيع الحب؛ لينسيه سنين البؤس والحرمان؟ وبعد تردد وحيرة وافقت الفتاة على الزواج من سعيد المراكبي، بعدما رأت حبه الشديد لطفلها الصغير.

وتمر الأيام ويشتد عود الطفل، حتى أنه لم يعد يفارق سعيد المراكبي. وتعلق قلب كل منهما بالآخر.

وذات مساء أحست الزوجة بشيء يتحرك في بطنها، فانتابها الخوف على ولدها الصغير خوفًا من أن يتحول حب سعيد المراكبي لولدها إلى المولود الصغير.

وتمـر الأيـام ويبدأ الأب في الشـكوى مـن الآلام الحـادة بجانبه على فـترات. ليحـس بعدها بآلام شـديدة يتلـوى منها عـلى الأرض، ليرقد بعدها داخل الكوخ يعاني من المرض.

خرجت الزوجة تبحث عن عمل يعينها على مصاريف علاج زوجها. وبعدما يأسـت من الحصول على عمل مناسـب، حملت عـلى يديها صينية دائرية الشـكل يتراص عليها أكواب الشـاي، وتحمل عـلى يدها الأخرى بـراد مـن الألومنيوم يتصاعد البخار مـن فتحته الجانبيـة، وتبدأ بعدها في المسـير وسط السيارات المتراصة داخل المحطة بجوار بقايا المعدية. وما إن تنتهي حتى تعود من جديد لتجلس على صخرة صغيرة اتخذتها مقعدًا لها.

تجلس ويبدوعليها علامات حزن دفين يسري في أعماقها وما إن تلتقط أنفاسها، وتغلي المياه داخل البراد حتى تنهض سريعًا؛ لتكمل عملها. وتمر الأيام وحاجة الأسرة إلى المال أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب.

وجاء يـوم الفراق والأم تحتضن ولديها. وتجلس حول فراش الموت حيـث يرقـد الأب يعانى مـن الآلام، وبيـد ترتجف تمسـح الأم عبرات زوجها، وهى تواسـيه. وهو يبدل نظراته ما بـين الطفلين وأمهما يحاول أن يحتضنهما. وماهى إلا لحظات قليلة لفظ الأب فيها أنفاسـه الأخيرة، لتفوح من حولهم نسمة من نسمات الربيع الباردة، رائحتها مسك ظلت تفوح من حولهم؛ ليكسوا الحزن والألم وجوههم.

وتمر الأيام سريعًا، وبيد تملكتها رعشة خفيفة؛ لتظهر ما بداخلها من قلقٍ وخوفٍ. تتحسس الأم الطريق وسط الظلام تحتضن ولديها، وهى تبكي. وخيالات الماضي البعيد تترائى من أمام عينيها منذ أن خرجت تبحث عن الجنة المفقودة. وظلت تلهث خلف أشباحها حتى اختطفتها الذئاب. ففقدت جنتها، وفقدت ذاتها، وفقدت أسرتها. وأشارت بيدها إلى تلك الصورة الصغيرة ما بين طيات ملابسها. وأوصت ولديها بضرورة الذهاب إلى جديهما، فكم تشتاق إلى رؤيتهما قبل وفاتها حتى تطلب الصفح والغفران.

وكان لوقع المفاجأة في قلبي الصبيين إحساس آخر. في بيت الجد يجلس الصبيين حتى يلتقطا الأنفاس، ويسود الهدوء تتبعه العاصفة. وإذا بشيخ عجوز يتكىء على عصا من الخيرزان يقترب منهما، يتفحصهما بنظراته الثاقبة ثوان معدودة. يتعلثم لسانهما، ويسكت عن الكلام. وتدخل الجدة وقد انحنى ظهرها، وإذا بالصبيين ينهمرا في البكاء، فبكت الجدة لبكائهما. وأخرج أحدهما الصورة من بين طيات ملابسه. وما أن نظرت الجدة فيها حتى سالت العبرات.

لحظات عصيبة مرت عليهم كدهر طويل. وأخذا يسردا ما أخبرتهم به أمهما لتعود الأم من عالم الأموات منذ أن خرجت تبحث عن جنتها المفقودة. واتكىء كل من الجد والجدة على كتفي الصبيين في طريقهما

إلى الكـوخ بجانب بقايا المعدية. وبهدوء فتـح الصبي باب الكوخ وهو يقـول: أبـشري يا أمي واقتربـا منها، فـإذا بروحها قـد فاضتت فترحم عليها الجميع، وانهمروا في البكاء.

.